

من أجل إعادة الاعتبار إلى «النصوص المحرمة»

نرى أن أدبيات اللغة العربية تزخر بالجنسانية الطافية، تصريحا وتلميحا، فهي تكاد تكون في كل مكان، من التعبير والشم، إلى المعاجم والموسوعات وكتب التراث ونثرنا وشعرنا، إلى المؤلفات المختصة بها.

تعطي النصوص الشعرية والنثرية السابقة للإسلام، إضافة إلى الأدبيات الإسلامية المبكرة، فكرة عن الحياة الجنسية للعرب في شبه الجزيرة في تلك المرحلة، فتفيدنا عن أشكال الزواج والاتصال بين الرجل والمرأة، كزواج الاستبضاع أو الرهط وغيرهما. ويستدل منها على الظواهر الاجتماعية المتصلة بالجنس، كالزنا مثلاً، فذكرت المصادر قحبة عكاظ وظلمة الهذلية، إضافة إلى البغايا، أصحاب الرايات، وذكر السحاق، كقصة عشق هند بنت النعمان لزرقاء اليمامة، وذكر النخنت أيضاً، كاتهام عمرو بن هشام بن المغيرة (أبو جهل) والحكم بن أبي العاص به، إضافة إلى اللواط، وأشكال الجنس البهيمي التي يستدل عليها من بعض بيوت الشعر، ومن الأمثال كالقول «أشبق من جمالة»، في إشارة إلى رجل من

أدبيات اللغة العربية تزخر بالجنسانية الطافية، صراحة أو تلميحا. من التعبير والشم، إلى المعاجم والموسوعات وكتب التراث ونثرنا وشعرنا. وإذا كان من المهم إعادة نشر هذه النصوص، فمن المهم أيضاً التعريف بها، لا البقاء في دائرة انفصام الشخصية الرقابية الذي يطال بمبعضه هذا التراث اللغوي

موريس قديح

تحتل ثلاثة الدين والسلطة والجنس صدارة الرقابة المعتادة في محيطنا تقليدياً. وإذا كانت التقنيات الجديدة قد خففت كثيراً من من حدة الرقابة وجعلتها شبه معدومة عملياً، فهي بقيت في مجال الكتب المنشورات، لأنها أسهل للمراقبة والضبط من المحطات الفضائية والمواقع الإلكترونية. ويتمظهر المنع بطرق كثيرة، كمنع إدخال المطبوعات الأجنبية، والمصادر، إلى منع بعض دور النشر من المشاركة في معارض الكتب، أو مطالبتها بسحب كتاب أو أكثر من مجموعات العرض، أو التعطيم على كتاب (مزعم).

إن الكتب التي نقصدها لا تشمل المنشورات والمجلات الجنسية أو المواد الإباحية بشكل عام، بل يفهم بالكتب الجنسانية مجموع الأدبيات ذات الطابع الجنسي التي لا تهدف إلى الإثارة المحضة بالمعنى الإباحي للكلمة، بل هي كتبت في مراحل تاريخية متعددة ولأهداف متعددة: بناء على طلب الحاكم، أو بهدف بيداغوجي أو عرضي، أو ببساطة تعبيراً عن أهواء كاتبها، بالأخص شعراً، وتعتبر شاهداً على عصرها ومصدراً تاريخياً، عدا قيمتها الأدبية طبعاً.

يساند المنع خطاب أخلاقي طهري، يتبرع لرسم صورة للحيز العام كحيز «نظيف» خال من الظواهر التي قد تعكس صفو النمطيات الأخلاقية العامة. ويتطفل على الأفراد في حياتهم الشخصية والعائلية والعاطفية والاجتماعية، محاولاً فرض أنماط سلوكية أقله بالشكل والتصريح العلني، مع غض نظر ريبائي فاضح من جهة أخرى. من نتائج هذا الخطاب حظر التداول في الكثير من المواضيع الجنسية أو الإيروسية أو التفوه بعبارات ذات صلة، وهي من أصل اللغة العربية الغنية جداً بها. أخيراً، يطمس الخطاب الطهري حيزاً مهماً من تاريخ اللغة العربية ونتائجها، لأنه يمنع تدريس هذا القسم من الأدب في المرحلتين الثانوية والجامعية، في محاولة لتأيد لحظة أنية متخيلة، لأنها في طلاق مع ممارسات الناس، في لزامانية مدعاة. تكتسب مقدمة الجاحظ لرسالته في «مفاخرة الجوّاري والغلمان» قيمة معاصرة لا لبس فيها، على ضوء ما تقدم، بالرغم من مرور أكثر من أحد عشر قرناً على كتابتها، وخاصة عندما يقول «وبعض من يُظهر النسك والتقىف إذا ذكر الحر (...) تفرّز وانقبض. وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من المعرفة والكريم، والنبل والوقار، إلا بقدر هذا التصنع». وفي استعراض تاريخي سريع،

بني قيس بن ثعلبية كان يأتي ناقة. وبعض بيوت الشعر تصف الفرج صراحة، فضلاً عن الشبق العام بالنساء في الكثير من شعر العرب قبل الإسلام، كشعر الأعشى، وامرئ القيس والنايعة الذبياني. كما تحتوي كتب التراث الإسلامي، من سير وأحاديث وتواريخ وفقه، نصوصاً عديدة ذات دلالات جنسية واضحة بالتصريح، أو بالتلميح. يستدل من بعضها على الكلام التعييري والنايبي الذي كان سائداً في المرحلة التي سبقت ظهور الإسلام ومرحلة صدر الإسلام، وهي شاهد على البيئة المكينة والحجازية عامة في تلك المرحلة. لا يقتصر الحديث الجنسي في كتب التراث على الفقه والانكحة وما شابه فقط، بل يتعداها إلى التعبير الصريح عن الجنسي في حياة الناس، كبعد أساسي من أبعاد الاجتماع البشري.

يحتل أبو نواس مكانة متميزة في طائفة الشعراء «الخلعاء»

إن ورود هذا الحقل المعجمي على لسان الشخصيات الأساسية في الإسلام، هو تحديداً ما يتحرس به الجاحظ في مقدمة رسالته الثالثة عشرة في «مفاخرة الجوّاري والغلمان». إذ يدافع استباقياً عن نفسه معللاً بأن الكلمات إن وجدت، فلكني تستعمل، مفضلاً بشواهد نصية.

لا تقتصر النصوص الجنسانية عند الجاحظ على الرسالة المذكورة فقط، فهو يورد مجموعة من الأشعار والنوادر الجنسية في متون أكثر من مؤلف من مؤلفاته، نقلاً عن كتاب سبقوه أو عاصروه، وخاصة في «الرسائل»، «كتاب الحيوان»، «البيان والتبيين»، و«المحاسن والأضداد»، المنسوب إليه.

لا يتفرد الجاحظ، إضافة إلى كتاب «ألف ليلة وليلة» بنسخته غير المهذبة، بهذه الخاصية في تاريخ اللغة العربية وأدابها، بل إن كثيراً من كبار المؤلفين تحنوي كتاباتهم على شواهد ومنقولات من هذا النوع. نجد على سبيل المثال لا الحصر نصوصاً مماثلة المحتوى عند المسعودي في «مروج الذهب»، وهو كالجاحظ من القرن التاسع، أو التوحيدي وهو من القرن العاشر، في «البصائر والذخائر»، أو «الإمتاع والمؤانسة»، إضافة إلى الأصبهاني في «محاضرات الأدباء» والأصفهاني في «الأغاني».

لا تنضب النصوص في الحقب التالية، فللتعالبي النيسابوري في «يتيمة الدهر»، «الكناية والتعريض»، و«فقه اللغة»، أو ابن سيده في مصنفه «المخصص»، والأبي في كتابه «نثر الدر في المحاضرات». وأيضاً في القرون اللاحقة، كالسلفي في «معجم السفر»، وهو من القرن الثاني عشر. كذلك عند ياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وعند ابن منظور في «لسان العرب»، وكلاهما من القرن الثالث عشر، أو ابن كثير في «البداية والنهاية»، في القرن اللاحق، وداود

الأنطاكي من السادس عشر في كتابه «أخبار العشاق».

يحتل أبو نواس مكانة متميزة في هذا السياق. هو صاحب أشعار طمستها يد الرقيب، فلم يصلنا منها تدريسياً وشيوعاً إلا أبيات باهتة عن الخمرة، حسنها ونحن طلاب ذروة ما قال من شعر «جريء». لأبي نواس شعر أعاد تحقيقه الشاعر العراقي جمال جمعة، وصدر عن «دار الريس» بعنوان «النصوص المحرمة»، يحتوي على قصائد ماجنة «متجاوز فيها الحد»، وتكمن روعتها في كونها انعكاساً لشخصية الشاعر واهتماماته وعواطفه. بعيداً عن بلاط الخليفة والمديح والهجاء، وفي أنها تعبر عن جو طبقة معينة في بغداد تحت حكم هارون الرشيد، ثم الأمين فالأمون، وفي كونها مطموسة أصلاً، يتشارك أبو نواس بهذا الأمر مع طائفة من الشعراء «الخلعاء» الذين عاصروه أو كادوا، كوالبة بن الخطاب، الحسين بن الضحاك، مطيع بن أبياس، يحيى بن زياد، واللائحة تطول بين العراق والشام، وحواضر أخرى في الدولة العباسية.

جميع هؤلاء الشعراء هم من أبناء العصر العباسي الذهبي، الذي أنتج أيضاً أدباً جديداً هو أدب الباه الذي يفصل ما يستحب أن يأتيه الرجل والمرأة في الظاهر والتزيين والمحادثة قبل العمل الجنسي وخلاسه، إضافة إلى طبائع الرجال والنساء والمستحب والمكروه منهم وكيفية استمالتهم، إضافة إلى فصول طبية ذات صلة. ووصلت إلينا هذه الكتابات على شكل تولىفات، معظمها متأخر، بعد القرن الثاني عشر. وتعالج هذه التولىفات موضوعات الجنس في أوقاته وأشكاله، ووصف أعضاء الرجل والمرأة، ووصايا الأمهات لبناتهن ليلة الزواج، فضلاً عن طائفة من أخبار القيادة والبغاء والسحاق والقحاب والمخنثين... أو تعالج المواضيع الطبية المتعلقة بالحياة الجنسية على ضوء معارف العصر، أو أيضاً هي كتب يختلط فيها الطبي بالفنون الجنسية، وأخيراً هناك التولىفات العامة التي تتضمن من جملة ما تتضمن فصلاً أو مقاطع لها علاقة بما سلف. من أهم هذه التولىفات: «نزهة الإصحاح في معايشة الأحباب» للسموأل بن يحيى بن عباس المغربي، وهو من القرن الثاني عشر، «نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب» لشهاب الدين أحمد التيفاشي، «الروض العاطر في نزهة خاطر» للنفرأوي (حقيق الأخيران جمال جمعة)، «تحفة العروس ومتعة النفوس» للنجاني (حقيقه جليل العظيمة)، والكتب المذكورة صدرت عن «دار رياض الريس». وهناك أيضاً «نواضر الأيبك في معرفة النيك»، و«الوشاح في فوائد النكاح» للعلامة الكبير جلال الدين السيوطي، و«جوامع اللذة» للقزويني، التي صدرت عن «دار تالة للنشر».

اللافت أن معظم هذه التولىفات كتبها فقهاء من مصر والمغرب العربي، بناءً على طلب من الحاكم، باستثناء التيفاشي والسيوطي على الأرجح. وأخيراً، تم تحقيق أو إعادة تحقيق عدد منها، ونشرت هذه النصوص بفضل عدد من الأدباء ودور النشر كما ذكرنا، إضافة إلى مؤلفات حديثة متصلة بموضوع البحث، ك«القاموس الجنسي عند العرب» لعلي عبد العليم، أو «الشبق المحرم- أنطولوجيا النصوص الممنوعة»، «المتعة المحظورة»، و«الإسلام مدخل جنسي»، «الجنس في الإسلام»، «الضلع الأعوج» وغيرها للكاتب إبراهيم محمود. هناك أيضاً «الجنس عند العرب- نصوص مختارة» الذي يقع في ستة أجزاء.

وإذا كان من المهم الاهتمام بإعادة نشر هذه النصوص والتعليق عليها، فمن المهم أيضاً التعريف بها، لا البقاء في دائرة انفصام الشخصية الرقابية الذي يطال بمبعضه هذا الحيز من التراث اللغوي.

منمنمة
فارسية
لحسين
بهزاد

